1

لقاءات مع «جمال عبد الناصر» .. من أرشيف دبلوماسي سوفيتي

لاتزال شخصية الزعيم المصري "جمال عبد الناصر" (١٩١٨-١٩٧٠) تجذب انتباه المصريين والباحثين في العديد من بلدان العالم كما جذبتهم قبل ذلك لعدة عقود بعد وفاته حيث قام على مدار الفترة الطويلة التي قضاها في السلطة (١٩٥٢ - ١٩٧٠) بإرساء قواعد الدولة المصرية الحديثة. كما أن كل وثيقة جديدة :ذ أو شهادة جديدة تضيف بعض اللمسات للصورة الرائعة للرئيس جمال عبد الناصر، رجل الدولة البارز. وقد كتب هذا التقرير الذي بين أيدينا الدبلوماسي السوفيتي البارز "فلاديمير ميخائيلوفيتش فينوجرادوف" (١٩٢١-١٩٩٧)[١] الذي كان يشغل آنذاك منصب نائب وزير الشؤون الخارجية للاتحاد السوفيتي. في هذه المذكرات لا يكتفي "فينوجرادوف" بذكر اللقاءات التي جمعته مع "ناصر" ولكنه أيضاً يلقي الضوء على السياسات التي انتهجها الاتحاد السوفيتي السابق تجاه منطقة الشرق الأوسط في تلك الفترة من التاريخ والتي لاتزال تدور حولها النقاشات

---

١ عن مقالة : «Встречи с Насером. Из архива советского дипломата»، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي» إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Belyakov Vladimir «فلاديمير ميخايلوفيتش فينوجرادوف هو أحد المشاركين في الحرب الوطنية العظمى وقد أنهى دراسته في معهد الكيمياء والتكنولوجيا بموسكو والذي يحمل اسم "ماندلييف" وأنهى دراسته في اتحاد الأكاديمية للتجارة الداخلية ، وبين عامي (١٩٤٨-١٩٦٢) عمل في وزارة التجارة الخارجية للاتحاد السوفيتي وفي عامي) ١٩٦٢ - ١٩٦٧ (عمل سفيراً للاتحاد السوفيتي باليابان وفي الفترة ما بين عامى (١٩٦٧- ١٩٧٠) شغل منصب نائب وزير الخارجية للاتحاد السوفيتي ومن عام (١٩٧٠- ١٩٧٤) عمل سفيراً للاتحاد السوفيتي بمصر، ثم ما بين عامى (١٩٧٤-١٩٧٧) كان المبعوث الخاص لوزارة الشئون الخارجية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، ومنذ عام (١٩٧٧- ١٩٨٢) ، عمل سفيراً للاتحاد السوفيتي في إيران ثم ما بين عامىّ (١٩٨٠- ١٩٩٠) عمل وزيراً للخارجية لدولة روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية.

حتى وقتنا الحالي . يتبين من التقرير أن الاتحاد السوفيتي السابق قدم العون العسكرى لمصر، وقدم النصح في نفس الوقت للرئيس "ناصر" بالحاح أن يتبنى موقفاً أكثر واقعية قد يسهل إيجاد سبل تسوية سياسية للصراع العربي – الإسرائيلي . وتمثل رواية شاهد العيان عن الجو العام الذي أجريت فيه مباحثات القمة المصرية- السوفيتية أهمية كبيرة. وظلت نصوص تلك المذكرات في حوزة الابن "ألكسندر فلاديميروفيتش" مثلها مثل باقى الأرشيف الخاص بوالده "فينوجرادوف". وقد أبدى موافقته على النشر بكل ترحاب .

بادىء ذى بدء، كنت قد التقيت "ناصر" لأول مرة في ظروف استثنائية وذلك في فبراير عام ١٩٧٠ حيث تم تكليفي باستدعاء السفير المصري في موسكو السيد "غالب"[٢] وقلت له : "الآن منتصف اليوم وبناءً على تعليمات من "ناصر" أعلمك أنه سيصل موسكو بعد ساعة في زيارة سرية إلى "موسكو" ، وسنتوجه الآن مباشرة من مقر الوزارة إلى المطار لاستقباله" .

لم يبد "غالب" أي اندهاش ، فقد كان يعلم بالفعل أن "ناصر" لا يثق في كبار الموظفين ، والدبلوماسيين المصريين ، وبعض العاملين في هذا النظام . في واقع الأمر كانت هذه رغبة "ناصر" أن يعلم شخص واحد بأمر هذه الزيارة وهو السفير المصري، وذلك دوناً عن كل المصريين العاملين في "موسكو" . وبالفعل توجهت أنا والسفير "غالب" إلى المطار وهناك كانت المرة الأولى التي رأيت فيها "ناصر" . وقد تكللت المفاوضات في "موسكو" بالنجاح ، فقد تم تزويد مصر بأسلحة حديثة خاصة بالدفاع الجوى وإرسال أطقمها السوفيتية إلى مصر بشكل مؤقت[٣] .

٢ "مراد غالب" (١٩٢٢- ٢٠٠٧) دبلوماسي مصري ورجل دولة منذ عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٧١ كان يشغل منصب سفير مصر لدى الاتحاد السوفيتي ثم من سبتمر/ أيلول ١٩٧١- إلى يناير/ كانون الثانى ١٩٧٢ كان وزير الدولة للشئون الخارجية لمصر، ومن يناير إلى سبتمبر ١٩٧٢ شغل منصب وزير الخارجية المصري .

٣ عن وصول أطقم المدفعية السوفيتية المضادة للطائرات إلى مصر أنظر "عندئذ في مصر" كتاب بشأن مساعدة الاتحاد السوفيتي لمصر أثناء الحرب ضد إسرائيل / موسكو ٢٠٠١ .

لم يفكر "ناصر" عند عودته للقاهرة في وقف ما يسمى "حرب الاستنزاف"[٤]، حيث تواصل تبادل إطلاق النار عبر قناة السويس، وقامت القوات الإسرائيلية بقصف المواقع الخلفية المصرية بالطائرات. لم تؤد هذه الحرب إلى نتائج فعلية لتغيير التعنت الإسرائيلى بل أدت فقط إلى تفاقم الوضع، وكانت التضحيات خاصة من الجانب المصري عديمة الجدوى بشكل واضح.

في تلك الآونة تدخل الاتحاد السوفيتي، وأجرى مباحثات مكثفة مع الجانب الأمريكي بغرض الوصول إلى حل سياسي للصراع في الشرق الأوسط، ولكن الأمور لم تسر بشكل جيد، نظراً لتعنت الموقف الأمريكي المؤيد لإسرائيل في كل شيئ وبشكل كامل. واتخذ العرب أيضا جانب التطرف حيال الموقف الإسرائيلى الشرس، ولم يوافقوا على الكثير من الأمور التي كانت على ما يبدو صيغة معقولة للتسوية السياسية.

الزعيم "جمال عبد الناصر" و"فلاديمير ميخائيلوفيتش فينوجرادوف" "مارس ١٩٧٠" القاهرة

٤ "حرب الاستنزاف" بدأت في مصر عام ١٩٦٨ وتمثلت في القصف المدفعي للمواقع الإسرائيلية بشكل دوري خاصة على الضفة الشرقية من قناة السويس، وتتلخص أهدافها في تكبيد العدو الإسرائيلى أقصى ضرر ممكن عن طريق استهداف الأماكن الحساسة من ناحية، ومن ناحية أخرى رفع الروح المعنوية للجنود المصريين جراء الهزيمة التي لحقت بالجيش المصري في يونيو١٩٦٧.

تراكمت لدينا أسئلة كثيرة : إلى أي مدى يمكن للجانب المصري أن يساهم في صياغة الوضع بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من جميع الأراضي العربية التي احتلتها في عام ١٩٦٧ ؟ وهل سيوافق الجانب المصري على إنهاء حالة " الحرب " فقط أم سيكون لديه الاستعداد لإقرار "حالة السلام" ؟! ومتى يمكن أن تأتى هذه الحالة ؟ إن مشروع الخطة الزمنية للتسوية يتضمن اقتراحاً بانسحاب القوات الإسرائيلية على مرحلتين . ولكن متى تأتى "لحظة السلم" هذه ؟ هل ستكون عقب خروج آخر جندى إسرائيلى من الأراضي المصرية المحتلة أم ستكون بعد بدء تنفيذ المرحلة الأولى من انسحاب القوات الإسرائيلية ؟ وعقب الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية؟ و ما هى الالتزامات التي يمكن للجانب المصري أن يلتزم بها بشأن صياغة شروط السلام ؟ فعلى سبيل المثال : هل يمكن أن تلتزم مصر بعدم شن عمليات عدائية ضد إسرائيل من داخل أراضيها ؟ وأخيراً ، هل هناك جدوى لاستمرار «حرب الاستنزاف» ؟ ، تلك «الحرب» التي وقفت عائقاً أمام بحث التسوية .

كل هذا وعدد آخر من الأسئلة المشابهة تقرر بحثها مع « ناصر» ، على الرغم من أن خطتنا من قبل كانت تنطوي على محاولة تنسيق مباحثات تمهيدية مع الجانب الأمريكى ، ثم إبلاغ « ناصر» للحصول على موافقته ، وما إذا كانت لديه أي تعديلات. كان «ناصر» يتعامل بمنتهى الألم والحسرة مع كافة الصياغات التي كانت تبدو من وجهة نظره تضعف الموقف المصري . وقد رفض الوزير[٥] السوفيتي المعنى بالشئون الخارجية آنذاك ، الذهاب للتحاور مع «ناصر» حيث أنه تكلم مع ناصر لأكثر من مرة عن نفس الموضوعات، غير أن جميع المفاوضات لم تمض بسلاسة، فقام بترشيحى للقيام بتلك المهمة وتمت الموافقة على ذلك .

وهكذا حصلت على تكليف بالتفاوض مع « ناصر» بشأن عدد من القضايا المهمة والدقيقة . وقبل أن نغادر متوجهين إلى « القاهرة» قال لى الوزير : «إذا نجحت في مهمتك التي كلفت بها حتى ولو بنسبة ١٠ ٪ فيعتبر هذا نجاحا» . لم تكن بالنصيحة الملهمة قبل السفر...ثم غادرنا متوجهين إلى « ناصر» .

٥ «أندرية أندريفيتش جروميكو» (١٩٠٩- ١٩٨٩) شغل منصب وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ما بين عامى (١٩٥٧- ١٩٨٥) .

كانت هذه أولى زياراتي للقاهرة في شهر مارس عام ١٩٧٠ . وبمجرد وصولنا علمنا بوفاة والد «ناصر» ، وأنه سيستقبلنا بعد يومين. وقد كرسنا هذين اليومين لمحاولة الاتفاق بشكل أولى بشأن جميع القضايا (وبالطبع فيما عدا قضية وقف حرب الاستنزاف) ، مع وزير الخارجية المصري «رياض» [٦] .

أندرية أندرييفيتش جروميكو (١٩٠٩-١٩٨٩)
كان مسؤولاً مهماً فى الاتحاد السوفيتي لفترة طويلة
وعمل وزيراً للخارجية فى الفترة ما بين (١٩٥٧-١٩٨٥)

تباحثنا مع «رياض» لفترة طويلة جدا، وبدا لنا أننا أقنعناه ، على الرغم من أنه كان يساوره قَدْر كبير من الشك ، وعدم الثقة في أية وسيلة للوصول إلى تسوية غير الوسائل العسكرية . وفي نهاية مباحثاتنا كان الشيء الوحيد الذي إستطاع «رياض» أن يعدنا به هو أن يبلغ «ناصر» محتوى جميع أحاديثنا وفقط .

بعد ذلك استقبلنا ناصر في « هيليوبوليس» [٧] داخل منزله الواقع في منطقة عسكرية (منزل جمال عبد الناصر يقع في منشية البكرى وليس هيلوبوليس – د. محمد رياض) وكان الأثاث على قدر كبير من البساطة والتواضع . وقد استقبلنا " ناصر " بكل حفاوة، وأجلسني بجانبه على الأريكة ، وقال لي بعد أن قرأ الملف الذي سلمه له " رياض" بشأن المفاوضات التي دارت بيننا أنه يتفق تماماً مع طريقة صياغتنا للقضية، وقال إننا على حق : فإذا تحدثنا عن السلام فليكن بمنتهى القوة وليس هكذا همساً . إنه رجل السلام ، ودع العالم كله يرى ذلك، لذلك فليس لديه أي اعتراض إطلاقاً أنه إذا خرجت القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة، فإن مصر ستعتبر نفسها ليست في حالة وقف للحرب، ولكن في «حالة سلام» مع إسرائيل .

---

٦ «محمود رياض» (١٩١٧- ١٩٩٢) دبلوماسى مصرى ورجل دولة . في خلال الفترة من عامى (١٩٦٤- ١٩٧٢) تقلد منصب وزير خارجية مصر ومن عام ١٩٧٢ إلى ١٩٧٩ شغل منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية .

٧ هيليوبوليس « مصر الجديدة» ضاحية بشمال القاهرة وهى متاخمة لإحدى القواعد العسكرية الجوية «ألماظة» والمطار الدولى . تتمركز بها مقرات عسكرية ومدارس عسكرية . أسسها الأوربيون في بداية القرن العشرين .

ثم قال بنبرة لطيفة، إنه يعلم جيداً أن قراراً كهذا لن يحظى بالتأييد في العديد من الدول العربية، وفي مصر نفسها ، ومن المحتمل ظهور بعض الساخطين، إلا أنه لديه إيمان شديد بصحة قراره، وقوة موقفه أيضاً . وأوضح لنا أن وضعه الآن كرئيس لمصر ونفوذه يسمحان له باتخاذ حتى تلك القرارات التي قد تكون غير مفهومة في أول الأمر لدى الشعب وبالتالى لا تحظى بالتأييد .

فيما يخص موعد حالة السلام قال « ناصر» : «أتفهم جيداً اهتمام أصدقائنا السوفيت أن نسقط من أيدي أعدائنا المشتركين الورقة الرابحة حول عدوانية مصر و رغبتها في تدمير دولة إسرائيل . و في الواقع يطالب البعض إسرائيل بأن لا تسحب قواتها، لأنه لا أحد يعلم ماهية الوضع بعد الانسحاب، هل سيكون هناك سلام أم شيء آخر؟ . لأجل إزالة هذا الشك كان «ناصر» على أتم الاستعداد للاتفاق معنا على أن حالة السلام ستأتي مباشرة بعد تنفيذ المرحلة الأولى من انسحاب القوات الإسرائيلية، و لكن بشرط ألا تطول مدة المرحلة الثانية – الانسحاب النهائى- عندئذ يستطيع الإسرائيليون سحب قواتهم بالكامل في حالة سلام فعلىَ . يعد هذا تنازلاً كبيراً من الجانب العربي حيث أنه من الناحية النظرية يعنى موافقة مصر على أن تكون في حالة سلام مع إسرائيل، على الرغم من بقاء القوات الإسرائيلية لبعض الوقت داخل الأراضي المصرية، ولكنها في طور الاستعداد لعملية الانسحاب.

فيما يتعلق بقضية التزامات الجانبين في حالة السلام فإن ناصر تفهم أنه يجب إسقاط الورقة الرابحة من أيدي العدو حول عدوانية مصر، لذلك وافق على هذا البند، والذي يقضي بأن البلدين لن يسمحا بأعمال عدائية تنطلق من أراضي طرف ضد الآخر، وربما بسبب ذلك سيشتمني الفلسطينيون، ولكنى لا أخشى ذلك حيث أن الحديث سيدور حول " الشروط النهائية لعملية السلام" ، والتي من خلالها سنجد حلاً للقضية الفلسطينية . شكرت " ناصر" على هذا القرار، وقلت إن هذا القرار سيساعدنا في المضى قدماً في نضالنا من أجل مصالح الدول العربية .

أخبرته لاحقاً أن لدى تكليف في غاية الأهمية لم أتمكن من مناقشته مع "رياض" وفي إيجاز قمت بسرد الحجج وتقييمنا لمسألة "حرب الاستنزاف" . كانت هذه أصعب لحظة حيث ربط ناصر بهذه "الحرب" الكثير من شعاراته السياسية، وإستخدمها خلال تحركاته السياسية بالداخل وكذلك في السياسة الخارجية .

استمع "ناصر" باهتمام إلى الحجج التي سردتها، والتي كنت قد قمت بإعدادها مسبقاً. وفي الختام نوهت إلى قرب وصول الوحدات العسكرية السوفيتية.

فكر "ناصر" ملياً وتمهل، ثم نظر إليّ باهتمام وضاقت عيناه ثم قال: حسنا أنا موافق على وقف إطلاق النار، لكن فقط لفترة وجيزة. و إذا لم يتخذ الجانبان الإسرائيلى والأمريكى خلال ذلك الوقت أي خطوات جادة بخصوص تلك التسوية، فسوف نعاود الحرب مرة أخرى. وبالطبع لا يجب أن يعلم الإسرائيليون والأمريكان بما قلته الآن. ولكن يمكنك أن تقول لو أوقفت إسرائيل غاراتها في عمق الأراضي المصرية فإنك ترجح أن مصر قد توقف حرب الاستنزاف. أما إذا سألونى هل أعطيت موافقتك على هذا الأمر سأجيب على الفور بأن هذا الحديث لم يكن" ثم ضحك. تنفست الصعداء (في داخلي بالطبع) وهكذا أستطيع أن أقول إنني نجحت في المهمة التي كلفت بها بنسبة ١٠٠٪.

أخذ "ناصر" أثناء المباحثات يروج لقضية مفادها أن الصراع في منطقة الشرق الأوسط برمته ليس صراعاً بين الدول العربية وإسرائيل، وإنما صراع بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وأن الصراع العربي الإسرائيلى قد انبثق من الصراع العالمى الأساسي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي. وبالتأكيد إن تبنى هذه القضية قد يؤدى إلى استنتاجات خاطئة ليس فقط من الناحية النظرية، ولكن من الناحية العملية البحتة.

على الفور فكرت ما الذي جعل "ناصر" يثير هذه القضية، ربما للتأكد من القناعات الخاصة عند الطرف الآخر، حيث أن هذه القضية التي لخصها كانت شائعة في محيط الدوائر المصرية على نطاق واسع. قلت "لناصر" إنني لا أتفق مع استنتاجاته فنظر إليّ بدهشة وقال: كيف هذا؟ وطلب منى أن أقوم بشرح وجهة نظرى. قلت إن الاتحاد السوفيتي لم ولن يكون طرفاً في الصراع العربي – الإسرائيلي، والذي هو في حقيقة الأمر ما هو إلا صراع بين قوى التحرر الوطنى، والقوى التقدمية بقيادة مصر والقوى الرجعية بقيادة إسرائيل والتي بالطبع تحظى بدعم الولايات المتحدة الأمريكية. وبما أن الصراع العربي- الإسرائيلى يعد صراعاً بين القوى التقدمية والقوى الرجعية فلاشيء يدعو للعجب في أن يدعم الاتحاد السوفيتي القوى التقدمية بينما الولايات المتحدة وفقاً لطبيعتها الطبقية تدعم القوى الرجعية. كان "ناصر" ينصت باهتمام، وحاول أن يطرح حججا إضافية، ولكنه في النهاية وافق على ماقلته. لا أعلم حتى الآن لماذا قام

" ناصر " بطرح هذه القضية . ثم وافق بعد ذلك . وقال في نهاية الحوار إنه لا يوجد في مصر حتى الآن أحد خالفه، ولكن فيما يبدو كنت أنت الأول . قال ذلك كأنها مزحة ولكن على ما يبدو كان الحال كذلك . الذيك

أبلغوني فيما بعد أن "ناصر" شعر بالرضى بشأن الحديث معي والجدال ، الذي كان بيننا. وبالطبع فإنه لم يكن يحب أن يعارضه أحد، وكان المحيطون به يعلمون ذلك ، وكانوا يذهبون إلى النقيض فكانوا يوافقونه فقط، مما كان يسبب له الضجر. في نهاية المباحثات دعى " ناصر " المصورين لالتقاط الصور التذكارية ، ورافقنا حتى باب المنزل ، وودعنا بحرارة، وتوقف مرة أخرى لالتقاط الصور معنا . كما عرض " ناصر " عليّ البقاء لمدة ثلاثة أيام حتى يتسنى ليّ زيارة " الأقصر وأسوان "، وأتمكن من مشاهدة المعالم السياحية للبلاد خاصة أن هذه تعد الزيارة الأولى لي لمصر، ولكن كان عليّ العودة إلى " موسكو " سريعا. وقد وعدته بالعودة مرة أخرى إلى القاهرة.

بالطبع لم أتوقع أنه بعد ثلاث سنوات ونصف أن يقول لي " هيكل "[٨] بينما كان يتفحص الصورة التذكارية التي تحمل توقيع " ناصر ": " لقد تحدث " ناصر" عدة مرات بعد مغادرتك وقال : " لا أفهم لماذا قدمت الكثير من التنازلات لـ " فينوجرادوف ". قلت : و أنا أيضاً لا أعلم . في واقع الأمر كانت تنازلات ولكنها صبت جميعاً في مصلحة الدولة المصرية .

من الواضح أنني أعجبت بشخصية " ناصر" فقد كانت تنبعث منه قوة ما، وثقة في النفس . ولم يكن مصدرها حفاوة صاحب منزل مضياف، أو وضعه كرئيس، بل تلمس فيه الحماس ، وحتى المشاكسة أثناء الحديث . كان على ما يبدو أنه يريد أن يكسب ود الآخرين، وربما كان يختبر من يحاوره بتغيير حاد للهجة الحديث ليرى هل أصابك بالارتباك أم لا.

في صيف عام ١٩٧٠ عاد " ناصر" مرة أخرى إلى " موسكو " ولكن هذه المرة للعلاج. وقد أدهشني مظهره المريض عند لقائه في مطار " فنوكوفو" بموسكو . كان " ناصر" طويل القامة عريض المنكبين وضخم البنية . لم يكن وجهه بتلك السمرة المعهودة وإنما ذو لون رمادى مريض وفي عينيه ألم خفي، ولكنه على الرغم من ذلك أخذ يبتسم

٨ «محمد حسنين هيكل» ولد عام ١٩٢٣ صحفي مصرى مشهور بقربه من دوائر صنع القرار عربياً ودولياً منذ عام ١٩٥٧ وحتى عام ١٩٧٤ شغل منصب رئيس تحرير الجريدة الرائدة في «الأهرام» إلى جانب أنه شخصية موثوق فيها لدى « ناصر».

وهو يصافح مستقبليه . لم يتبين ليَ وقتها هل تمكن " ناصر " من التعرف عليَ أم لا . أنا لا أعتقد ذلك فقد مر علىَ ونظر في وجهى، ثم صافحنى ، وإبتسم، ولكنة إبتسم في وجه الجميع بلا استثناء...

أثناء المباحثات في " الكرملين " كان " ناصر " يتصرف كما لو كان بين صحبة طيبة، فقد كان يتصرف بلا تكلف، وبحرية تامة، كما أنه كان يستجيب للمزاح بسهولة ، وكان في كامل تركيزه وانتباهه عندما كان يستمع إلى ما يقوله له القادة السوفيت . وعندما كان الأمر يتعلق بمطالبه فإنه كان يتبع الأسلوب الآتى: كان يقوم بشرح الموقف، والذي لا يعدو أن يكون بمثابة تبريراً لأسباب الطلب ، ثم يقول ذلك بإخلاص تام كما لو كان يقول : انظر إلىَ فأنا ليس لدى أي أسرار كى أخفيها . ثم ينتقل إلى الموقف التالى : لقد شرحت لكم كل شيء وكيف تجرى الأمور. والآن جاء دوركم لكي تتخذوا قراركم . كانت تلك الطريقة تبدو دائما بمثابة نزع السلاح عند الطرف الآخر ولكنها كانت تؤدي إلى نتائج جيدة بالنسبة له في واقع الأمر كان هذا صدقا ضرورياً وحقيقياً وليس رغبة في قنص شيء ما بأي وسيلة خاصة في ظل العلاقات الودية بين «مصر والاتحاد السوفيتي».

أثناء المباحثات أتيح لى أن صحبته في السيارة، وكانت الأحاديث معه في السيارة دائما ما تتسم بالطرافة بغرض معرفته كإنسان . وقد بدا عليه السرور عندما علم أننا أثناء فترة الشباب كان لدينا نفس الاهتمامات الرياضية، والتي تمثلت في ممارسة كرة السلة، وحالياً لدينا هواية مشتركة وهى حب السنيما [٩] ، ولكنه إشتكى من أنه لا يتوفر لديه الوقت الكافي لكي يرتب شرائط الأفلام التي تم التقاطها . وهى أزمة كل من يهوى هذه الهواية .

ذات مرة تحدث «ناصر» عن الخدمة الإذاعية لدينا وتساءل : لماذا يتدنى مستوى تغطية المحطات الإذاعية للأخبار خاصة فيما يتعلق بالأخبار العالمية ؟ فالخدمة لديكم متأخرة، ولا تثير الاهتمام ، والشيء الأهم أنها غير فعالة . وإنكم تفقدون الكثير من جراء ذلك. هل تعلم أن بحوزتى باستمرار راديو ترانزستور مؤشره مثبت دائماً على محطة الـ «بى بى سى» الدولية ، حيث يقوم الإنجليز كل ساعة ببث مجموعة من الأخبار بإيجاز ووضوح لمدة تستغرق من ٧ـ١٠ دقيقة ، ولذلك يتوجه العالم كله للاستماع لهم. فلماذا لا

٩ منذ عام ١٩٦٠ وحتى ظهور كاميرات الفيديو، كانت هواية محبى السينما منتشرة على نطاق واسع.

تؤسسون لمثل هذه النوعية من البرامج ، سيكون شيئاً ممتعاً بالنسبة لنا أن نوجه أسماعنا إلى «موسكو» أكثر من مثيلتها التي تبث من لندن .

وفي مرة أخرى طرح السؤال الآتي : «لماذا لا ترغبون في أن نتحدث علانية عن المساعدات العسكرية التي يقدمها الاتحاد السوفيتي لمصر ؟ فلاشك أن أعداءنا على علم بها. فلماذا إذن لا يجب أن يعلم بها أصدقاؤكم وأصدقاؤنا ؟ وإذا كان أعداؤنا يعلمون بأمر هذه المساعدات فمن الأولى أن يعلم بها الأصدقاء . . إنني واثق أننا نخسر من جراء ذلك سياسياً» وأثناء تواجد «ناصر» في «موسكو» وردت رسالة من «القاهرة» مفادها مقتل ٥ طيارين في مصر من بينهم طيارون سوفيت قام الإسرائيلون بإسقاط طائرتهم . وكم كان هذا أمر يدعو للأسف إذ كان هذا الحادث من جراء قيام الطيارين الإسرائليين ببعض المناورات البسيطة جدا و بعبارة أخرى لقد وقع طيارونا والطيارون المصريون في فخ «بدائى» وكان المدان بشدة في ذلك الأمر محطات التوجية الأرضية وشعر «ناصر» بحزن شديد على مقتل الطيارين . وقال لى إنه كان يعرفهم جميعاً بصفة شخصية . كما أن أعداد الطيارين الأكفاء في مصر قليلة جداً .

عندما كان «ناصر» هنا للعلاج حقق كلُ من رائدا الفضاء «نيكالايف» و «سيفوستيانوف» [١٠] الرقم القياسي في الطيران في الفضاء . وبهذه المناسبة تم دعوة : «ناصر» ومرافقيه إلى حفل استقبال كبير في قاعة «سان جورج» داخل القصر الكبير بالكرملين .

في الظهيرة تلقيت إتصالاً هاتفياً يخبروني فيه أن «ناصر» يرغب في تكريم «نيكالايف» و« سيفوستيانوف» وتقليدهم أعلى الأوسمة المصرية وهى « قلادة النيل»[١١].

١٠ منذ الفترة ما بين ١١ إلى ١٩ يونيو ١٩٧٠ أتم رائدا الفضاء «أندريان جريجوريفيتش نيكالايف» (١٩٢٩-٢٠٠٤) و «فيتالى إيفانوفيتش سيفوستيانوف» (١٩٣٥-٢٠١٠) ٢٨٦ دورة حول الأرض على متن سفينة الفضاء «سيوز - ٩».

١١ صحيح - «قلادة النيل» تم إنشاء هذه الجائزة عام ١٩١٥ ، ومن بين الشخصيات الروسية التي تم منحها هذه القلادة «خورشوف» في عام ١٩٦٤ أثناء زيارته لمصر للمشاركة في مراسم تحويل مجرى النيل وأيضا حصل عليها رواد الفضاء: «جاجارين»، «تريشكوف»، «نيكولايف»، «سيفوستيانوف» .

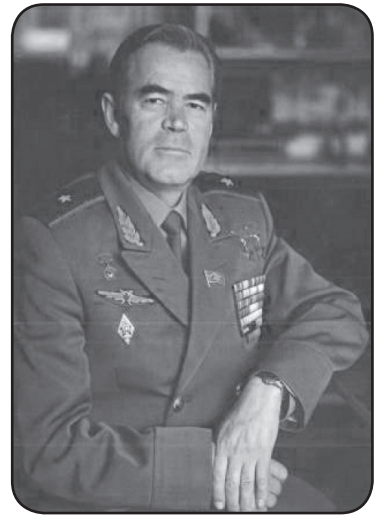

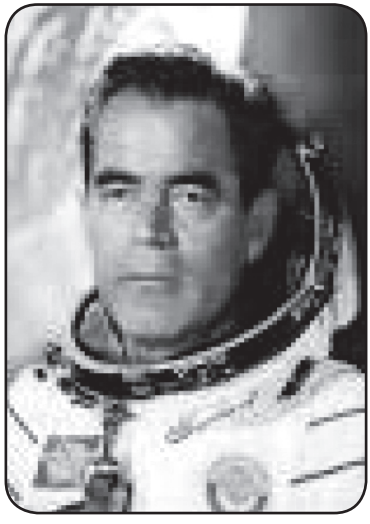

أندريان جريجوريفيتش نيكالاييف (١٩٢٩ – ٢٠٠٣)
ولد في أسرة من الفلاحين الروس وتم تقليده " قلادة النيل " أثناء زيارة " ناصر " للاتحاد السوفيتي

فيتالي إفانوفيتش سيفاستيانوف (١٩٣٥-٢٠١٠)
رائد الفضاء الذي قلده " ناصر " " قلادة النيل " في الاحتفال الذي أقيم في "الكرملين "وحضره" ناصر"

فاسيلي فاسيليفيتش كوزينتسوف (١٩٠١-١٩٩٠)
دبلوماسي سوفيتي وأول نائب لوزير الخارجية السوفيتي

سيقوم " ناصر " في حفل الاستقبال بتسليمهم تلك الأوسمة . وطلبوا مني توضيح الموقف بهذا الشأن . حاولت تنسيق الأمر مع المسئولين بهذا الصدد . ولكن كنت أواجه باعتراضات في كل مكان إذ يقولون أنه يمكن أخذ الأوسمة، لكن لا يجب تسليمها داخل الكرملين . وأبلغوا "ناصر" بذلك الذي إستاء بدوره وقال أنه لن يذهب إلى حفل الاستقبال في الكرملين لأسباب مرضية . من ثم تم إرسال سفيرنا " فينوجرادوف "[١٢] إلى "بارفيخا" [١٣] حيث مكان إقامة "ناصر" وعندما وصل قال للرئيس مباشرة إنه يتعين عليه الذهاب إلى الحفل . وبالفعل حضر "ناصر" حفل الاستقبال بعد أن أمر الياوران أن يأخذ معه الأوسمة على كل حال ، وجاءوا إلى الحفل يحملون علب كبيرة الحجم . حاولت أثناء الحفل إقناع القيادات المعنية ، وأوضحت الموقف ذلك أن "ناصر" كان يقف، وينتظر السماح له بتقليد الأبطال الأوسمة وبالفعل نجحت في هذه المهمة . قالت قيادتنا : إن ما حدث كان لا بأس به ومقبول ولكنه جاء متأخراً عن أوانه .

سفير الاتحاد السوفيتي السيد
«فلاديمير ميخائيلوفيتش فينوجرادوف»

ولم يتسنْ لى رؤية "ناصر" بعد ذلك فقد وافته المنية .

١٢ «سيرجى ألكسندروفيتش فينوجرادف» (١٩٠٧- ١٩٧٠) دبلوماسى سوفيتي حتى عام ١٩٦٧ شغل منصب سفير الاتحاد السوفيتي بمصر.

١٣ تقع «بارفيخا» بالقرب من موسكو حيث يوجد منتجع للاستشفاء والراحة خاص بالقادة السوفيت.

تعين علي أن أقوم فقط بأداء الواجب الحزين إذ حضرت ضمن الوفد السوفيتي برئاسة «ألكسب نيكولافيتش كوسيجين»[١٤] جنازة « ناصر» فقد تم تعييني تحديداً بمناسبة وفاته سفيرا للاتحاد السوفيتي في مصر. كل ذلك غير متوقعا مثل الموت تماماً (يقصد موت ناصر المترجم د. محمد رياض). تلقينا الخبر في موسكو في مساء التاسع والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠[١٥]. أخبرونى بضرورة الذهاب على الفور إلى الوزراة ، حيث قضيت أنا و «كوزينتسوف»[١٦] ليلة كاملة نعمل على مختلف أنواع الوثائق التي تتعلق بوفاة « ناصر» . وفي الصباح تم عقد إجتماع للمكتب السياسي (للحزب الشيوعى السوفيتي) وأعلنوا بشكل مفاجيء تماما بالنسبة إلى تعيينى سفيراً في مصر. لم يتحدث معي أحد من قبل عن ذلك . لم يكن هذا هو لب القضية على الرغم من أن هذا الأمر لايصف وزيرنا من الجانب الأفضل، إذ أنه من المحتمل قد أخبر القيادة أنه قد دار بيننا حديث عن ذلك الأمر. وعندما طلبت عدم تعيينى سفيراً في مصر لسبب وحيد وهو الظروف المناخية غير الملائمة ساد إرتباك وذهول شامل. كان القرار قد تم اتخاذة بالفعل. وبعد ساعتين كنت قد طرت إلى «القاهرة» غير قادر على استيعاب ذلك الذي حدث معي.

حين هبطت الطائرة كانت «القاهرة» غارقة في ظلام دامس . تسرب إلينا قلق الليل عندما كانت الطائرة تقترب من المطار . وسط هذا الظلام الدامس كان يمكن التخمين بوجود حشود من الناس في مكان ما بسبب ضوء المصابيح الكاشفة الخاصة بالنشرات الإخبارية المصورة ، وكانت الوجوه المتحمسة تصدر وميضاً . ولم يكن هناك أدنى مظاهر للنظام حتى في المطار. بدأت أتلمس طريقى أثناء النزول على سلم الطائرة . وقابلنا السادات[١٧] الذي كان ينتحب بصوت عالٍ وبصحبته بعض القادة الآخرين . وأخذوا «كوسيجين» لمكان ما ، وشق حراسه طريقهم في الظلام . وخرجنا بصعوبة ودلفنا إلى أول سيارة وصلت إليها أيدينا . وجلست مع «زاخاروف» وطلبنا أن يذهبوا بنا حيث سيكون «كوسيجين» ، وصلنا بعد ذلك إلى مقر إقامة السفير أي إلى مقر إقامتي الجديد.

١٤ «ألكسى نيكولافيتش كوسيجين» (١٩٠٤-١٩٨٠) رجل دولة سوفيتي ومنذ عام (١٩٦٦-١٩٨٠) كان ممثل مجلس الوزراء السوفيتي.

١٥ على ما يبدو أنه توفي ٢٨ وليس ٢٩ كما نفهم من النص التالى. حيث وصل الوفد السوفيتي إلى القاهرة لحضور مراسم الدفن خلال ٢٤ ساعة من وفاته.

١٦ «فاسيلى فاسيليفيتش كوزينتسوف» (١٩٠١-١٩٩٠) دبلوماسى سوفيتي ورجل دولة. منذ عام (١٩٥٥-١٩٧٧) كان منصبه أول نائب لوزير الخارجية السوفيتي.

١٧ «أنور السادات» (١٩١٨-١٩٨١) رجل دولة مصرى – منذ ١٩٦٩ – شغل منصب نائب الرئيس المصري.

أليكسي نيكولافيتش كوسيجين (١٩٠٤-١٩٨٠)
رجل دولة وسياسي ، خدم كرئيس لوزراء الاتحاد السوفيتي فى الفترة من (١٩٦٤- ١٩٨٠) ، **كان يعتبر من المصلحين السوفيت ومنافس قوى للزعيم الشيوعى المتشدد «ليونيد بريجنيف»**

كانت البلاد تغرق في حالة شديدة من اليأس المفرط في حين خرجت حشود الجماهير إلى الشوارع وكانت تعلو وجوههم نظرات الذهول ويتجمعون في مجموعات ويتحدثون عن شيء ما، و يشيرون بأيديهم في حماس. وكان بعضهم يركب فوق أسطح الأتوبيسات وأعلى عربات الترام. ويقولون إن هناك حالات كثيرة لأناس ألقوا بأنفسهم من فوق الكبارى، ومن فوق أسطح الحافلات من اليأس. كان مبنى السفارة محاطاً بحائط صد من الجنود الذين يحتمون خلف الدروع والعصىّ . يقولون إنه بسبب اندفاع الجماهير، ربما يحدث أي شيء وربما تندس بينهم عناصر غير صديقة . في اليوم نفسه ذهبت إلى «هيكل» الذي كان يبكي وهو غير مصدق ولا يستطيع أن يتخيل كيف حدث ذلك. والأمر الذي لايصدق أيضا أنه لم يكد يمر يوم واحد على وفاة «ناصر» وها قد وصل بالفعل أفضل أصدقاءه من الشعب السوفيتي لحضور مراسم تشييعه. فجأة قال لى «هيكل» ربما إنك لاتعرف أن « ناصر» كان يكن لك كل الاحترام ، وقال لى « ناصر» أثناء الفترة الطويلة التي أعقبت وفاة سفيركم الراحل [١٨] مع عدم تعيين سفير سوفيتي آخر في مصر: «دعنا نطلب منهم إرسال «فينوجرادوف» [١٩] إلى هنا فأجبته : إنني أتفق معك تماماً في هذا الرأي، ولكن الأمور لا تجرى بهذا الشكل، فالسفراء لا يتم اختيارهم من الطرف الآخر. ولربما إذا طلبت ذلك يحدث العكس تماماً . فهم لن يرسلوه إلى هنا إذا طلبت ذلك . هكذا تسير الأمور في العادة .

١٨ «زاخاروف ماتييف فاسيليفيتش» (١٨٩٨-١٩٧٢) محارب سوفيتي، مشير الاتحاد السوفيتي. ومنذ عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧١ عين رئيس الأركان العامة في القوات المسلحة السوفيتية وفي عام ١٩٦٧ وبعد هزيمة مصر في «حرب الأيام الستة» تواجد في القاهرة لفترة قصيرة لحل المشاكل التي وقفت أمام الجيش المصري.

١٩ السفير «فينوجرادوف» وكان قد توفي في موسكو ٢٧ أغسطس ١٩٧٠.

في تلك اللحظة أصابتنى رجفة وتساءلت هل يعلم «هيكل» بأمر تعيينى سفيراً لدى مصر؟ ولكن إنى له أن يعرف . فنحن لم نكد نصل، ولم يلتق «كوسيجين» بأحد من المسؤولين المصريين بعد . لا محال . لا يمكن لـ«هيكل» أن يعلم بهذا . عندما أخبرت «هيكل» بأمر تعيينى لم يستطع أن يقول شيئا لبرهة طويلة من الاندهاش، ولكنه أخيراً تكلم فقال : « لا يمكن هذا غير معقول أتحققت الوصية الأخيرة للزعيم الراحل «جمال عبد الناصر» ؟ وكرر لفترة طويلة في ذهول من وقع ذلك الحدث، أن ذلك الأمر كان سيسعد «جمال» سعادة بالغة .

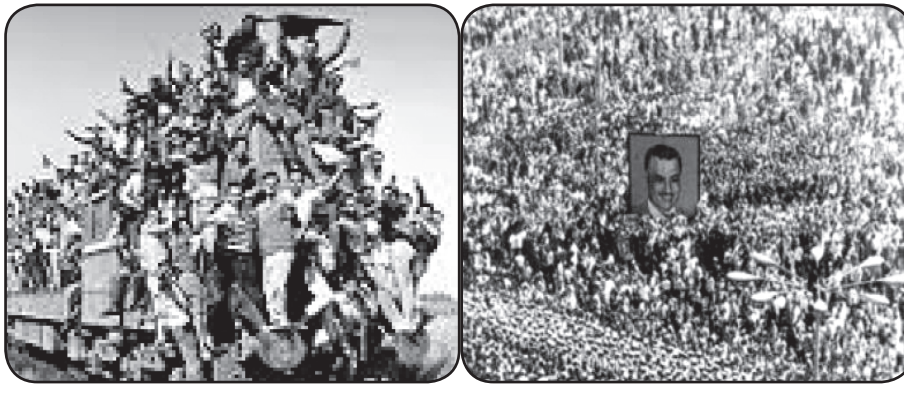

صور للحشود التي خرجت في وداع الرئيس الراحل " جمال عبد الناصر "

تعين علينا أن نذهب لحضور الجنازة على متن لنش، لأنه كان من المقرر أن يبدأ الموكب الجنائزى من المنزل الكائن في جزيرة الزمالك [٢٠] والذي كان من قبل مقرا لمجلس قيادة الثورة [٢١] وكان عبور الكوبرى وسط هذه الجماهير العريضة يبدو أمراً مستحيلاً. فلجأت الشرطة إلى عمل أسهل شيء وهو رفع الكوبري . وقد أعطونا لنشا و صحبنا "هيكل" [٢٢] فور وصولنا إلى مقر قيادة الثورة أدخلونا إلى غرفة منفصلة . وكان يتواجد أمام أنظارنا " السادات " و " علي صبري " [٢٣] طوال الوقت ، بينما كان يدخل و يخرج أناس

٢٠ كلمة «زمالك» تندرج تحت كلمة «جزيرة»، يربط بينهما جسر ولكن «الزمالك» – منطقة سكنية على جزء من الجزيرة .

٢١ الكلام هنا يدور حول ثورة ٣٢ يوليو ٢٥٩١ والتي تزعمها «ناصر» .

٢٢ مقر إقامة السفير السوفيتي (روسيا) يقع على شاطىء النيل حيث يقيم «هيكل» على مسافة بناية واحدة منها .

٢٣ «على صبرى» (١٩٢٠- ١٩٩١) رجل دولة مصرى ، في عام ١٩٦٥ إلى عام ١٩٦٨ شغل منصب نائب الرئيس المصري وأحد المقربين إلى «ناصر» .

مختلفين من كبار رجال الدولة يقدمون التحية لـ " كوسيجين " وينصرفون .

كان " ناصر " بالفعل زعيماً " العالم الثالث " ، وقائداً العالم العربي ، وجميع البلدان النامية تقريبا، كما أنه نال احترام جميع البلدان الرأسمالية تقريباً . قولاً واحداً كان هناك حشد كبير من الناس بدرجة غير معقولة . وكان الملوك ورؤساء الوزراء يدوسون أقدام بعضهم البعض جراء التزاحم .

وأخيراً تنامى إلى أسماعنا صوت المروحية التي تقل جثمان " ناصر " . تحرك الجميع في إتجاه إحدى قاعات المبنى حيث كان تابوت الزعيم يتوسط القاعة ملفوفاً بالعلم المصري. رقد علي التابوت بعض الأشخاص وأخذوا ينتحبون . بدأ الرتل في التكون أي الموكب الجنائزى ثم اتجهنا إلى الخارج . و اشتدت حرارة الشمس المصرية بدرجة غير عادية الأمر الذي زاد في سخونة الجو .

وأخيراً ، ظهرت بداية الموكب الجنائزى . وكان التابوت محمولاً على مدفع حربي تجره ستة خيول . وكان هناك جنود يمتطون ظهور الجياد ، ويسيرون في جواره بينما علت أصوات المشيعين بالبكاء والنحيب . كانت الشمس تلفح الوجوه، وتصبب الجميع عرقاً وخلف التابوت كانت تسير جموع غفيرة من الجماهير، وقد نضطر رغماً عنا إلى الانخراط في الموكب وسريعا ما سيحدث تزاحم هائل . و بدلاً من الموكب ستكون هناك جموع لايمكن السيطرة عليها ، وحتماً سيسحبونك إلى مكان ما دون رغبتك وربما تسقط على الأرض . وسيحاول الضيوف ذوي المكانة الرفيعة أن يثبتون على أقدامهم . وأفكر رغماً عني وماذا بعد ذلك ؟ إذ أن هذه هي «النخبة» فقط في الموكب أي الضيوف الأجانب . وحتما ستنضم إلى الموكب الآلاف المؤلفة من الناس في الشارع ، ولكن لا شيء من هذا قد حدث . ببساطة توقف الحشد الذي كنا نسير فيه ، ولم يخرج حتى خارج حدود حديقة ما في الزمالك وفجأة رأينا «السادات» يحملونه في الاتجاه المعاكس محمولاً على كرسى، ويتأرجح كالدمية . ويقولون إنه شعر بتوعك، بينما عاد المشيعون إلى الوراء ، وفي مكان بعيد عنا توارت الخيول والجماهير والتابوت الذي يضم جثمان «ناصر» . ومن هناك كان يصل إلى أسماعنا هدير الجماهير . وإختلط الحابل بالنابل وأوصونا بالعودة إلى المنزل مرة أخرى على متن اللنش .

في الثانـى والعشـرين من أكتوبـر عام ١٩٧٠ قدمـت أوراق اعتمـادي للرئيس المصري الجديد «أنور السـادات» [٢٤] وبعد الانتهاء من مراسم تقديم أوراق اعتمادى توجهت مباشرة إلى قبر «ناصر» لزيارته. كان ينتظرنى هناك بالفعل عدد كبير من موظفي السفارة، وقمنا بوضـع إكليل من الزهور على قبره مكتوباً عليه : «إلى جمـال عبد الناصر من أصدقائك في سـفارة الاتحاد السـوفيتي». جذبت هذه المراسـم عدداً كبيراً من المشاهدين، ولكنها لم تسترع إنتباه الصحافة . وها نحن قد شيعنا زعيم الشعب المصري الزعيم الخالد إلى قبره [٢٥].

٢٤ إنتخب «السادات» لهذا المنصب في ٧١ أكتوبر من نفس العام.

٢٥ * الأرشيف الشخصى لـ «فينوجرادوف» ، الأصلى ، الكتابة بخط يد المؤلف مصحوبة بتصويبات وعلى اليسار تذيل باليد «فبراير ١٩٧٥ ، موسكو» (مكتوب بخط رفيع مائل).